# صورة الغرب في المجتمعات العربيّة

المطران جورج خضر



أي غرب نريد؟ الغرب المقصود هنا هو أوربة الغربية ثم أميركا. أوربة الغربية التي تنتهي بالنمسا هي التي تفاعلت والشرق الأدنى. وهي تفرق نفسها بخط الدانوب ثقافياً وتاريخياً عن روسيا وما إليها من أوربة الشرقية. وقد جعل أرنولد توينبي لروسيا حضارة أخرى ولاسيما أن روسيا القديمة يرى الكثيرون من مفكريها أعني دعاة السلافية أنها ليست من الغرب وبمعنى عميق لم تتغرب إلا مع ظاهرة الشيوعية. وعند ذاك اهتمت لامتداد لها في دنيا العرب أكثر من روسيا الأمبراطورية. أوربة الغربية هي التي واجهنا بحق منذ العصر الأموي.

أي مجتمع عربي؟ عندنا المشرق والمغرب وقد لا تكون صورة الغرب في كل ملامحها هي إياها في المنطقتين. كذلك عندنا المسيحيون العرب والمسلمون العرب في الشرق الأدنى. وعند هؤلاء وأولئك لا تغدو صورة الغرب واحدة من كل زواياها. وإذا كان للمسيحيين دور تأسيس وريادة في هذه الأمة في العصور الحديثة تكون صورة الغرب عندنا مركبة ولا تكون هي إياها تفصيلياً في البلدان التي كثر فيها المسيحيون كبلدان الهلال الخصيب وفي تلك البلاد التي سكانها مسلمون حصراً. لذلك سنحاول الانعتاق من عنوان «الغرب والإسلام» الذي يروج له الغرب وتروِّج له تيارات الصحوة الإسلامية.

إن عسر المعالجة لهذا الموضوع يعود إلى أن صورة الآخر تتغير حسب الشرائح الاجتماعية. فهي عند العامة شيء وعند الخاصة شيء. غير أن كليهما تجمعهما انفعالية العرب بحيث يفترقون في تصوري فقط من حيث الأداء والتعبير ولكنهم لا يفترقون في الفريزية. هناك صورة واحدة في العقل العربي تتراوح بين اللاوعي الجماعي والتحليل الحضاري أو

الأنتروبولوجي. غير أن الجامع أو المنطلق هو الجرح العربي الذي لم يندمل ولاسيما أن أميركا وهي الغرب الأقصى دخلت على خط التفاعل ولاسيما بعد الحرب العالمية الثانية وقبحت صورة الغربي أو زادتها قباحة.

سأحاول في هذه العجالة أن أرى العلاقة بيننا على ثلاثة محاور:

أولاً: الغرب المستعمر.

ثانياً: الثقافة الغربية.

ثالثاً: الإباحية الغربية.

قد يكون في هذا بعض اختزال ولكني أحسب أني أدنو بها من كمال الصورة.

## أولاً: الغرب المستعمر

إحساسنا تكون مع الحروب الصليبية وتقوّى مع الاستعمار البريطاني والفرنسي لأرجاء كبيرة من الجزيرة العربية ولمصر ثم لبلاد الشام في القرن العشرين. في الشعور العربي أن الغرب غازٍ في طبيعته أو في تاريخه. وهذا الشعور يتأسس على أن الغرب اقتحم دار الإسلام التي كتب الله لها الفتح والنصر (إذا جاء نصر الله والفتح. سورة النصر، الآية الأولى). الشعور العربي المعاصر يرى في هذا حرباً كولونيالية، استيطانية في دنيا العرب بحيث أننا أسقطنا القومية العربية الحالية على دار الإسلام التي اجتاحتها ـ في ذهنية المسلمين آنذاك ـ جحافل الفرنجة. تلقيناها صدمة موجعة وأكثر إيلاماً من صدمة التتار (وقد أسلموا بعد فترة وجيزة من اجتياحهم بغداد) ومن صدمة العثمانيين. غزوات بين المسلمين مهما اختلفت اللغات والحس القومي لم يكن قد ظهر. قرأنا تاريخ حروب الفرنجة على أنه تجريح دار المسيحية لدار الإسلام. لذلك كانت وطأة المماليك شديدة على المسيحيين كما كانت وطأة الفرنجة على مسيحيي أوطاننا كثيرة الشدة. ولهذا كثر اعتناق المسيحيين العرب للإسلام من بعد رحيل الإفرنج.

هذه الحروب هي التي أثارت العداوة بين الأرثوذكسيين أهل البلد واللاتيني المحتل، هذا منذ الحملة الصليبية الأولى التي اضطهدت الأثوذكس إضطهاداً رهيباً وألغت رئاساتهم الروحية وأقامت الرهبان اللاتين بطاركة وأساقفة في سوريا التاريخية وقبرص بحيث أمكن المؤرخين المعاصرين أن يقولوا إن الإنشقاق الكبير لم يحصل حقاً السنة الـ ١٠٥٤ كما هو معروف ولكنه حصل على الأرض السورية بإجلاء البطريرك عن عاصمتها الدينية أنطاكية وبذبح الفرنجة للمسيحيين في القدس مع المسلمين واحتلال القسطنطينية السنة الـ ١٢٠٤ مع الحملة الصليبية الرابعة.

الغربي مستعمر صورة واحدة عند المسلم العربي والمسيحي العربي. الأمر الذي قرب بينهما وجعل يونانيي القسطنطينية يؤثرون سقوط عاصمتهم بأيدي الأتراك من أن ينهزموا أمام البابوية ويسلموا أمرهم لها. نشأ نوع من التواطؤ بين المسيحيين الأرثوذكسيين والمسلمين في رفضٍ واحدٍ للغرب، ولعله قوي بهذا الإحساس بانتماءٍ واحدٍ إلى الأرض. غريزياً

يرى هؤلاء وأولئك أنهم مستهدفون معاً.

لعل هذا يفسر إلى حد كبير عند استفتاء لجنة عصبة الأمم الشعب الأرثوذكسي بعيد الحرب العالمية الأولى بواسطة لجنة كينغ كراين أن الشعب الأرثوذكسي عبر عن رفضه للانتداب الفرنسي واختياره فيصلاً ملكاً على سوريا. طبعاً كانت القومية العربية قد ذاعت. ولكن الانتقال الحاسم عند الأرثوذكسيين كان من أمبراطورية عثمانية كانوا موالين لها إلى دولة عربية أميرها سليل بني هاشم عشيرة الرسول.

أما مقاومة المشرقي للانتداب فمن الواضح أنها كانت عربية صرفة في ظل الانتداب البريطاني لفلسطين. كذلك كانت في سوريا، واتضحت الوطنية الواحدة في لبنان السنة الـ١٩٤٣. الغربي مغتصب في ذهن الجميع. وزاد وجه الغربي قباحة مع وعد بلفور وأسود كلياً مع نشوء دولة إسرائيل لمّا فهمها العربي على أنها وجه من وجوه الاستيطان الغربي ومحاولة كبرى لعودة الغرب إلى الشرق من نافذة مشرعة بعد خروجه من الباب. وعند ذاك اقتنع العربي بأن عدوه التاريخي هو الغرب كاملاً حتى أقصاه وبأن أميركا ظالمة كما لم تظلم أوربة لكونه رأى للمرة الأولى ثنائية التصرف. الدعوة الديموقراطية من جهة لكل العالم والسيطرة العالمية القائمة على أن في الشأن العالمي مكيالين. الخطابية الفرنسية والخبث البريطاني ما كانا في عقولنا على هذه المكيافيلية.

المغرب العربي يختلف بمقدار لأنه لم يذق مر الحروب الصليبية فعداؤه للغرب لم يمتد على قرون طوال وتأصله باللغة الفرنسية جعل بينه وبين أوربة تواطؤا لسنا نحن المشارقة عليه.

ما من شك أننا بعد أن طاردتنا أميركا بهذه الفظاظة وبعد أن خسرت أوروبة الغربية هيمنتها على العالم وأبانت اختلافها مع الولايات المتحدة ولو جزئياً تجمل وجه أوربة لأنها لم تبق هي الغرب. القرية الظالمة كما يقول القرآن هي التي يعيش فيها «الطاغوت».

## ثانياً: الثقافة الغربية

غير أن شعور العربي بقمع الغرب له لا يمنعه من الانبهار بحضارة الغرب وكأنه يفصل بين قوة الغرب التوسعية العسكرية وثقافته. تلك يعانيها غطرسة واعتداء ويمجها. أما هذه فتسحره. والحضارة الغربية في نظر شعوبنا علم وحضارة وتنظيم مجتمعي ولا يرى لها علاقة بالمسيحية مصدر إلهام ودينامية في الإنسانيات. هو لا يرى المسيحية الغربية إلا محاولة لاقتناص المسلمين أو الأرثوذكس ولعله لا يذكر أنها هي التي حولت البرابرة في القرن الخامس إلى شعوب مبدعة. هذا الإلحاح على الإنسان، على قيمة المرأة ومكانة الطفل واحترام المواطن للمواطن والموسيقى الكلاسيكية والرسم لا يحب أن يرى أنها متصلة بطريق أو أخرى بالميراث المسيحي ولو ضعفت الممارسة الطقوسية هنا وهناك.

ويعجب محمد عبده أن يرى في فرنسا إسلاماً بلا مسلمين كما يرى في مصر مسلمين بلا إسلام. ولا يخطر على باله أن ما سماه إسلاماً إنما هو المسيحية بالذات. ولكون الأدب

والفنون يظهر تأثرها بالمسيحية ولو كابر العربي يميل هذا إلى الإعجاب بالعلوم والتكنولوجيا وفي تخيله أنه يستطيع أن يقتبسها يوماً لأنه ليس عنده قراءة شمولية للحضارة الغربية بحيث يفقه أن كل عناصرها متماسكة وأنك لا تستطيع أن تعزل هذه العناصر أحدها عن الآخر وتبقى فاهماً. العربي يلح على أن الإسلام عنصر أساسي في الحضارة العربية ولكنه لا يعرف أن المسيحية كانت في المرحلة الأولى من المدنية الغربية كل شيء فيها وأنها بقيت شيئاً كبيراً فيه حتى في زمن الجحود، ذلك أن الجحود نفسه ولدته طاقة الحرية أو الدعوة إلى الحرية التي أطلقها يسوع الناصري.

من الأهون على العربي أن يقول إن العلوم والتكنولوجيا هي اليوم في الغرب وأن استعمال العربي لها سيحصل بالانتقال. فكما غابت العلوم في القرون الوسطى عن الشرق ستعود إليه بلا إطار الديموقراطية وحرية البحث والنقد الديني. يظن العربي أنه يمكن أن يلصق العلوم والتكنولوجيا باستبداد الأنظمة العربية وكلاّنيتها. العقل العربي مجتزىء الرؤية وينتظر عودة الشمس إلى الشروق في أرجائه.

العربي يعزي نفسه أمام تقصيره بأنه روحاني وبأن الغرب مادي. ويظن نفسه متديناً دون الغربي. يعطي نفسه شهادة عفة وقداسة في حين أنه إنسان طقوسي. لا يكره الخرافة التي يظن أنها من الدين، تقليدي مجتر وعنده شبق المال والسلطة والجنس كما الغربي وكما الإنسان بعامة. «مادية» الغربي اصطنعها الشرقي لينحت صورة عن نفسه مشرفة ولا يموت بيأسه. هو يحتاج إلى صورة عن الغربي مشوهة ليعزي نفسه عن تخلفه وتخلف حكامه وبقائه في أمية رهيبة.

لعل أبرز إمارات الرقي الغربي في عقلنا تنظيمه المجتمعي وبنيان دولته. الغربي في تصورنا إنسان القانون والخضوع له بحيث تنتفي مبدئياً العلاقات العاطفية بين الحاكم والمحكوم بما فيه من اختلاط شخصي بينهما ومحسوبية. يفهم العربي أن العلاقات هناك تجريدية ومنتظمة في إطار الدولة وأن هذه تدرس كل أمور المواطن بحيث لا يخرج بحث عن هموم الحكم، ويدعم هذا الحكم الفرد الفذ ولا تتدخل الدولة بتوجيه فكره ولكن تسعى إلى تنميته بالحرية والإفادة منه بلا تطويع.

في التماسنا الوجه الفريد من الحضارة الغربية نرى أنها تركز على العقل وعلى الموضوعية وعلى التنظيم. الغرب ابن أرسطو وابن ديكارت. هكذا يرى المثقف عندنا مع أن أفلاطون حي في التراث الأوربي وفي المسيحية الغربية تصوف كبير، عشقي يشبه كثيراً التصوف الإسلامي. والفن الأوربي في مجالاته جميعاً لا يتأتى من أرسطو أو من ديكارت. لماذا لا يرى المثقف العربي الأوربي إلا في سيطرة العقلانية؟ ربما أراح العربي هذا ليهرب من العاطفية العربية والانفعال والعشائرية. ربما يخلص بذلك نفسه.

علاقة الدولة والمجتمع ليست في خط واحد، في خط إشراف الحكم على الناس وحسب، ولكنها بالدرجة الأولى في المنحى المعاكس أي خط تأثير المجتمع على الدولة. الدولة من هذا القبيل جزء من الثقافة. هكذا يراها الغربي، أما عندنا فهي بنية فوقية وفي كثرة الأحوال غير متصلة بالثقافة.

وما قد يضعف انبهار العربي الكامل بالمجتمعات الأوربية أن العربي يؤمن بأن لغته ليس مثلها شيء وأن آدم كان يتكلم بها وأنها لغة أهل الجنة وأنتجت شعراً لا يضاهيه شعر وطرباً لا يعرفه إلا أهل الشرق وتالياً أن الغرب لا يستطيع أن يعطينا إلا العلوم التي دارت دورتها فحلّت عنده.

تفوق الثقافة الغربية ليس في تخيلنا الجماعي إذاً تفوقاً كاملاً لكوننا متفوقين في اللغة. ومن جهة أخرى نرى أنفسنا متفوقين بالحكمة وفضائل الضيافة والدفء البشري. لعل في هذا الكثير من الصحة مع أن الريف الأوربي بعامة والجنوب الأوربي يقتربان بالحرارة الإنسانية منا.

المسيحي الشرقي لا يعتبر الغربي متفوقاً عليه في كل الميادين لكون المسيحي العربي يظن أنه أدرك الكثير من الحضارة الأوربية في العمق وأخذ بأحاسيسها وأدرك كنه أدبها وأنه إذا توفرت الحرية الكاملة في الشرق يستطيع هو أن يحمل راية مدنية عالمية مجسدة حتى الآن في الغرب وأن يمدّ بها الشرق الإسلامي. ليس المجال هنا لأناقش هذا الادعاء ولكنه في مخيلة المسيحي الشرقي ما في ذلك ريب.

هذه الملامح لصورة الغربي لا تكتمل بلا صورة الإباحية التي نرى الغربي عليها.

## ثالثاً: صورة الإباحية

منطبع في التخيل الشرقي أن الإباحية مجتاحة للغرب ولو على درجات. ففي الطليعة تأتي اسكندينافيا والولايات المتحدة ثم فرنسا وهكذا دواليك. ويبدو التفلت الخلقي في أذهاننا أن عذرية الفتيات مجهولة وأن الخيانة الزوجية متفشية كثيراً ولاسيما عند الذكور وأن الأزياء المثيرة إنما يصممها الغرب وعلى رأسه باريس. وما بلغ الإنسان العربي أن السينما والتلفيزيون والمجلات الخلاعية والكثير من القصص وبعض الأغاني عنده كلها مطارح للفسق.

وما زاد الصورة بشاعة الاعتقاد بأن العائلة الغربية مفككة. الواقع أن عائلة من ثلاث في فرنسا تنتهي إلى طلاق وأن عدداً كبيراًمن الأطفال ينسب إلى أم دون أب أو إلى أب دون أم ويعرف الولد أن أمه تعيش مع صاحب لها أو أن أباه يعيش مع صاحبة ويتلقى الولد هدايا في عيد الميلاد من الوالد الذي يعيش معه ومن رفيقته وأمه مطلقة بعيدة.

فإذا انتهت عائلة من ثلاث إلى الطلاق فمعنى ذلك أن ثلثي المجتمع صامد دون الطلاق وربما كان متزعزعاً من زاوية أخرى (خيانة لا تفضي إلى طلاق، عنف منزلي مثلاً).

الشأن الآخر الذي بدا جلياً مؤخراً هو مسألة شرعنة العلاقات المثلية بدءاً بإسقاط العقوبة الجزائية على اللوطيين وسعياً إلى إباحة العلاقة ابتغاء بعض النتائج القانونية مثل التوارث بينهم أو توريثهم المشترك لأولاد أحد الطرفين.

الملاحظ في قضية الجنسية المثلية أنها تتمحور على فكرة الاحترام للفرد بحيث يتعاطى الجنس طبيعياً أو بما يخالف الطبيعة (هذا طبعاً تفريق يرفضه المثليون) ويصرون على أن المتعاطى هو من الطبيعة. ما يقلق الشرقي أن المثلية في إنكلترة قد تتجاوز نسبة ١٠٪ وربما كانت كذلك في البلاد السكندينافية. وما يستغربه العربي المطلع على ما يُتداول اليوم في فرنسا

أن الدولة في تعاطيها أمر اللوطيين يهمها حريتهم ولكن ليس إلى حد شرعنة زواجهم حفاظاً منها على قانونية الزواج الذي يقضي بأنه يتم بين رجل وامرأة حسب قانون نابوليون. ولكن هذا ليس السبب الأعظم في الفكر السياسي الفرنسي. الأهم أن فرنسا لا تريد أن تنشىء طائفة اللوطيين أي كتلة تتكلم كمجموعة communauté لها ذاتية تتجاوز الأفراد. هذا يناقض نظام عدم اعتراض هيئات بين الفرد والدولة. حرية المثلية لا تأخذ كل مداها لكونها تتصادم والفلسفة السياسية التي تقوم عليها فرنسا الرافضة قيام طوائف دينية أو غير دينية في هيكلية الدولة أو في مفصلية التماس بين الدولة والمجتمع.

طبعاً الشرق العربي لا يبيح القيام بإحصاء المثليين من ذكور وإناث. العربي يخشى العار لانتمائه إلى ما سمي shame civilization باختلافها مع مدنية الذنب guilt civilization التي تسوس المجتمعات الأوربية. ذلك أن المجتمع الإسلامي أقرب إلى التراص وبخاصة إلى إبداء التراص والتمسك بالشرع أو القول بهذا التمسك. ويتزوج اللوطي عندنا حتى لا يقر أمام قومه باللواط وليقنع نفسه أنه قادر على الجنس الثنائي. اللوطي العربي لا يعترف أما الغربي فيعترف ويتباهى ويتظاهر ويؤلف أندية لمماثليه. ولكون اللوطي العربي يختبىء يمكن أن يرجم كلامياً اللوطي الغربي الذي يبوح. صورة الغرب هنا يحاكمها اللوطيون ولو راقتهم لأنه يجب أن يبيضوا صفحتهم في بلادهم.

في هذا الخط نفسه أعتقد أننا نتعاطى صورة الفسق في الغرب أيضاً على أساس مدنية العار وحسب قاعدة «إذا بليتم بالمعاصي فاستتروا». فالأخطر من الزنا عند العربي كشفه، لذلك يستقبح الفسق الغربي ولا يستقبح الفسق الشرقي لأن الحديث عنه من المحظورات.

وتستهجن المرأة العربية كلامياً فحش الأزياء الأوربية ولكنها تستعملها وتفرح بها، تستهلكها في كل بلدان العرب بدت أو حجبها ما حجبها في الطريق وينفع صورتنا عن نفسنا أن نرى الفاحشة آتية من الغرب فساتين. لا يمكن أن ننصف الإنسان الغربي إذا بقينا فريسة مدنية العار ولم نتبين مدنية الذنب، تلك التي تعترف بالخطيئة جهاراً وتحاول تخطي السقوط بجهد التوبة.

شددنا على البلدان الأقرب إلى الشمال مهملين البلدان الجنوبية مثل إسبانيا وإيطاليا. أجل ليس من غرب واحد. ولكن البلدان الكبرى هي التي تفاعلنا وإياها بنوع خاص. هذه هي التي تسمح بيننا وبينها بالتقابل. وعند التحليل لا نجد أننا فقط على خط التصادم أقله على صعيد الحياة الحضارية. فالعرب الأقدمون دانوا بالولاء لأرسطو وللفلسفة اليونانية بعامة. والعرب يحبون الحياة الحقوقية وقد قدموا على هذا المستوى الفقه الإسلامي وتمسكوا بالدولة لما كانت دولتهم. وركزوا على أن الإسلام دين العقل. العرب لهم طريقتهم في العقلانية ومن هذا القبيل كانوا «غربيين» مما يبطل إلى حد بعيد مقولة كيبلنغ «الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا». وعرف العرب حياة ماجنة في بغداد وامتلأت أدبيات العصر العباسي بالنصوص الإروسية والشعر الماجن والخمريات.

هذا غيض من فيض. غير أن هذه المحاور الثلاثة التي أشرنا إليها تبدو لي جامعة لما في الذهن العربي عن الغرب حتى نلتقي في الحرية بعد النقد الهادىء لنا ولهم.